بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كلية العلوم الاسلامية- قسم العقيدة والفكر الاسلامي.

محاضرات في علم الكلام المعاصر. **المرحلة الرابعة**

جمع وترتيب: د. محمد خليل ابراهيم.

نشأة ووظائف علم الكلام الجديد.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد- ﷺ -، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اما بعد.

تعود بذور التفكير الكلامي الجديد على الساحة الإسلامية إلى القرن التاسع عشر الميلادي؛ أي إلى زمن شروع التحديات الفكرية والثقافية الغربية التي رافقت الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي. وقد كان للمستشرقين دورٌ فاعلٌ في تكوين هذا الجوّ العام نتيجة الانتقادات الحادّة التي وجّهوها إلى كافة مرافق الفكر الإسلامي، لا سيما السنّة النبوية الشريفة، وقد انبرى جيلٌ من العلماء في تلك الفترة لمواجهة هذا الواقع الفكري المرفوض في الوسط الديني، وكان أبرز هؤلاء السيد جمال الدين الأفغاني في ردّه على الدهريين، وجاء بعد ذلك جيلٌ آخر تمثل بالشيخ محمّد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا، وغيرهم فسجّلوا أبحاثاً هامة على هذا الصعيد، وتحوّل المشكلات الكلامية من طابع الإجابة عن أسئلةٍ واستفهاماتٍ، وملاحظاتٍ أثارتها ظاهرة الاستشراق أو الظاهرة العلمانية، والقومية المتعاظمة أو التيار الماركسي... إلى تقديم صياغاتٍ متكاملةٍ لمشاريع فكرية كبرى صارت تمثّل تحدّيات، فلم تعد القضية، بحيث إنّنا نجيب عن تساؤلٍ وإشكاليّةٍ واردةٍ، وإنما صارت هناك مسؤوليةٌ جديّةٌ لتقديم مكونٍ متكاملٍ في موضوعةٍ ما؛ فالظاهرة الدينية ككل صارت بحاجةٍ إلى تفسيرٍ فلسفي متكاملٍ وشاملٍ، وموضوعة المرأة ليست كامنةً في إشكاليّة الحجاب أو الستر... وإنّما في عرض نظريةٍ متكاملةٍ متناغمةٍ متناسقةٍ حول هذا العنصر البشري.هذا التحدي ضغط بثقله على النشاط الكلامي ، فحال علم الكلام الجديد ليس كحال علم الكلام القديم قبل الطوسي والغزالي والفخر الرازي و... وبعدهم، أو كحال علم الحديث قبل الموسوعات الكبرى كالكافي وصحيح البخاري و... وبعد هذه الموسوعات.

سبب تسميته بعلم الكلام الجديد.

ان علم الكلام الجديد هو في جوهره علم الكلام التقليدي القديم، ولكنه تكامل وتتطور في مجمل نواحيه المعرفية فبدا وكأنه علم آخر، شأنه في ذلك شأن البذرة التي تنمو حتى تصبح ثمرة فلا تعود تشبه تلك البذرة في شيء من صفاتها، ولكنهما في الجوهر واحد.

فبعد تجدد كل ما يحيط به على أثر المعطيات العلمية الجديدة من علم النفس والاجتماع والفلسفة النقدية والمادية والوجودية، كان لا بد من إعادة طرحه بثوبه الجديد الذي يتلاءم مع الواقع الجديد، لهذا سمي علم الكلام الجديد في إشارة إلى أمرين:

١ - أنه في جوهره عين علم الكلام القديم، بدليل أنه ينطلق نحو الغاية نفسها التي كان ينطلق القديم لتحقيقها، وهي الدفاع عن الدين الإسلامي. ويحتفظ بموضوعه مع توسعة فيه جعلته أشمل مما كان عليه.

٢- أنه يختلف عن القديم في أنه متجدد في مجمل أبعاده المعرفية كما مر

موضوع علم الكلام الجديد .

تبين مما تقدم أن علم الكلام الجديد يدور حول محور أكثر اتساعاً وشمولية مما كان سابقاً، فهو يبحث عن الأمور العقائدية والأمور الأخلاقية، بل عن بعض الأمور الفرعية المختلفة في مجالات شتى، وهو ما يجمعه كلمة " القضايا الفكرية المعاصرة، وبالتالي يمكن القول ان الموضوع الاساسي الذي يتناوله علم الكلام المعاصر هو الشبهات المستجدة التي تاثر حول الدين في هذا العصر.

هذا وقد توالد بعد عصر النهضة، وخصوصاً في القرنين الأخيرين، مجموعة علوم جديدة تناولت مختلف جوانب الحياة، منها ما يمس بالدين بشكل مباشر، ابرزها:

- فلسفة الدين وما استتبعها من دراسة الأديان من خارج الدين وتحليل منشأ الدين لدى البشر، وإجراء مقارنة بين الأديان.
- الفلسفة الحديثة وما تركه "كانت" من تشكيك في إمكان الوصول إلى اليقين في الأمور الماورائية، وفي جدوى الدين في خلاص البشر من مشاكلهم، من خلال أسئلته الأربعة: ماذا أستطيع أن أعلم؟ وماذا أستطيع أن أفعل؟ وعلى ماذا أستطيع أن أعقد الأمل؟ ومن أنا؟
- علم النفس، وما ابتكره داورين من إشكالات حول تطور البشر، وبالتالي تطور معارفهم، ومنها الدينية، وما استتبعه من النزعة الإلحادية التي عمت العالم الغربي، فأنكر الخالق، ثم أنكر الدين.
- علوم الإنسان وما أثارته من تساؤلات حول الغرض من وجود الإنسان، وحول

كون الدين في خدمة الإنسان أم الإنسان في خدمة الدين، ومن الذي خلق الآخر؛ الله، أم الإنسان؟

- العلوم السياسية وما طرحته من نقد العلاقة بين الدين والسياسة.

- العلوم الاجتماعية، وما اثارته من شكوك حول علاقة الانتاج وأدواته بالدين والأخلاق والروحيات إلى درجة اعتبار الدين أفيون الشعوب.

وقد ولد كل واحد من هذه العلوم مجموعة من الشبهات تُضعف فكرة الدين عموماً، وتدعو إلى الإلحاد واعتماد العلمانية بديلاً لمعالجة مشكلات البشر.

وبملاحظة كل هذا الكم الهائل من الشبهات التي تعترض طريق الدين من مختلف جوانب الحياة، كيف يمكن لنا أن لا نلجأ إلى علم كلام جديد يترك وراءه الكثير من الجدالات العقيمة، ويبرز إلى ساحة الصراع بعتاد جديد ورؤية وخطة جديدتين؟

هذا، فضلاً عن وجود مسائل بحثت في علم الكلام القديم، وهي من اختصاص علوم أخرى كالاقتصاد مثلاً وكالعلوم الطبيعية، ما يعني وجود تشويش في بُنية هذا العلم.

كل هذا ما يدعو اليوم لتجديد علم الكلام تجنباً لتلك السلبيات، ودفاعاً عن الإسلام في مواجهة الشبهات المستجدة، وبالتالي محاولة بنائه من جديد على ضوء ما وصل إليه الفكر الديني من نضج وغنى تفاعلاً مع التطور العلمي الحاصل في العصر الحديث.

في ضوءِ ذلك يتضح أننا أمامَ عِلمين: "علم الكلام القديم"، و"علم الكلام الجديد"، وليس عِلماً واحداً، فعلى الرغم من اشتراكهما بالاسم، لكنّ توصيفَ "الجديد" يجعله مفارقاً للقديم بشكلٍ كبير، فهو وإن كان يشترك معه في بحثِ جملةٍ من الموضوعات نفسِها، لكنه لا يضيف موضوعاتٍ جديدةً لم يعرفها علمُ الكلام القديم فحسب، بل إن طريقةَ بحثه ونتائجَه ومراميَه مختلفةٌ، ذلك أنّ كلاً منهما له مقدماتُه المعرفية، ومنهجُ بحثه، وأدواتُ تفسيره، ومفاهيمُه المفتاحية، وكيفيةُ رؤيته للعالم.

وظائف الكلام الجديد:

إن الوظائف الرئيسية التي يمارسها علم الكلام تتمثل - وفق ملاحظات جملة من الباحثين- في أمور ثلاثة:

أ- محاولة شرح وتبيين المفاهيم الاعتقادية بالصورة المناسبة القادرة على احتواء، واستيعاب المضمون إلى أبعد الحدود، ونقله بأمانةٍ ودقّةٍ، وبالتالي تحجيم وتقليص الأخطاء والاشتباهات التي يمكن أن يسببها سوء أو قصور الخطاب، والعرض الكلامي، ويأتي هنا دور تحديد المصطلح السليم الذي يبعد عن حدوث التداخلات والاختلاطات بحيث يعكس بوضوحٍ، ما يريد أن يحكي عنه بأقلّ قدر ممكن من الانفلات والتضيّق.

ب- محاولة إثبات المفاهيم الاعتقادية وإقامة الأدلة والبراهين عليها من خلال

توظيف مختلف أنواع الإثبات المنطقية والمعتبرة قياساً واستقراءاً و... على المستوى العقلي، أو النصّي، أو التاريخي، أو التجريبي أو غير ذلك.

ج- محاولة رد ودفع الإشكالات والشبهات الموجّهة إلى المعتقدات الدينية والمذهبية. ويعتقد هؤلاء الباحثين أنّه لو قبلنا بعلم الكلام الجديد أو رفضناه، فإن الوظائف المتوجبة على علم الكلام اليوم هي نفسها الوظائف التقليدية الثلاث المتقدمة. وهذا التوصيف أو تلك التوصية كأنها تفترض مسبقاً انتهاء علم الكلام من البناء الاعتقادي ومن ثم هو يقوم، أو يجب أن يقوم بتبيينه، أو إقامة الدليل عليه، أو الدفاع عنه بردّ الانتقادات الموجّهة إليه، وهذا يستدعي أن يكون ثبوت المعتقد الديني، أو المذهبي لدى العقل الكلامي أمراً مفروغاً عنه، ويُراد لعلم الكلام أن يعرضه أو يبرهن عليه للآخر، وهذا يتطلّب معرفياً أن نكون قد هيأنا ما يجهّز لعلم الكلام هذه المعتقدات ليقوم بدور خدمتها، لأن المتكلم إذا خرج بنتيجةٍ تعارض المعتقد المذهبي مثلاً، فإنه سيخرج عن دائرة الكلام؛ أي عن دائرة الأنا إلى دائرة الآخر وبالتالي سيتم اعتباره خارجاً عن حريم علم الكلام؛ لأن هذا العلم قد افترض فيه شيءٌ من الالتزام والتعهّد، وهذا خللٌ منهجي علمياً؛ لأن أهمّ خصيصةٍ من خصائص العلمية اليوم هي خصيصة الموضوعية، وبالتالي، فنحن بحاجةٍ إلى كلام ديني ليس غرضه - من ناحية علمية صرفة لا دينية - الدفاع عن الدين بل غرضه البحث حول الدين.

وهذا التعديل في وظيفة علم الكلام يمكنه أن يؤمّن له:

أ- ديناميكيّة فعّالة ناتجة عن إفساح المجال للتعددية الفكرية في النطاق الكلامي، وبالتالي إفساح المجال لتقبّل أي تطوير جوهري، لأن تكثير الخطوط الحمراء من الناحية العلمية يضر بتقدّم العلم تقدماً ملحوظاً.

ب- توسيع نطاق الأنا العلمي الأمر الذي يفعّل من النقد الذاتي البنّاء؛ لأن الباحث لم يعد بحاجةٍ إلى تقمّص شخصيةٍ أخرى عندما يريد نقد الكلام الإسلامي، أو اليهودي أو غيره ، أمّا علم الكلام بشكله الحالي، فإنه يضيّق من مساحة النقد الذاتي، إذ يفترض أن قسماً كبيراً من عمليات النقد هي عمليات خارجية أي من الخارج لأنها تنقد الدين أو المذهب لا داخلية، وهذا قد يفقد علم الكلام في تركيبته الداخلية فرصاً للنقد الذاتي، والتنقل بين الأفكار بحريةٍ أكبر نتيجةً لذلك، الأمر الذي صار ضرورةً لنموّ أيّ علمٍ.